صور إعجاز البيان في حواس وجه الإنسان

د. عبد الله محمد فهد د. انتصار سامي ابراهيم

ملخص البحث

وتتضح أهمية هذا البحث في كونه محاولة لبيان إعجاز خلق الله تعالى وحواسه التي يتجلى في طبيعة تكوين آلاتها وكان لهذا البحث صور من الإعجازات الكثيرة أهمها :إن الحواس من النعم التي أنعم الله بها على الإنسان، وميزه بها عن الحيوان، فجعلها-سبحانه وتعالى-وسائل يتمكن بها الإنسان من معرفة خالقه، فيستدل بها على وجوده، وقدرته، وعظمته، ويستمتع بها في حياته، وما يتعلق بآخرته. لذا فإن القرآن كثيراً ما يستعمل تلك الحواس لتحقيق هذه الغاية. فهي بهذا وسائل للمعرفة.إن القرآن الكريم استعمل أفعال الحواس بدلالات مختلفة منها دلالات حسّية (حقيقية)، وأخرى معنوية (مجازية). فقد استعمل مثلاً الفعل (سمع) بدلالته الحسّية، وهي إدراك الصوت بالأذن، واستعمله بدلالته المعنوية المجازية، كالدلالته على القبول والطاعة، أو على معنى العلم، أو على التدبر والإنصاف، أو على الإصغاء.استعمل القرآن الكريم أفعال الحواس في تصوير مظاهر الحياة الدنيا، وفي تصوير مظاهر يوم القيامة؛ لأن هذه المظاهر تدرك بتلك الحواس.وجاء البحث على مقدمة واربعة مباحث شملت الاعجاز في البصر والذوق والشم والسمع . وختاما أوصي الباحثين وطلبة العلم المشتغلين بهذا المجال أن يبحثوا في كل جزئية من جزئيات هذا الفن

Images of Declarative Miraculousness in the Five Senses Of Man's Face

Abdullah Mohammed Fahad
Entisar of Sami Ibrahim

Abstract

The significance of the present paper arises from being an attempt to view the miraculousness of Allah in His creatures and especially his senses. Senses are Allah's grace to human that distinguish him from animals to know the facts and to infer the existence of his creature. The five senses are mentioned in the Holy Qur'an and they are: listening, sighting, tasting, touching, and smelling. The Holy Qur'an mentions each one more than once emphasizing their semantic connotation and importance .The paper falls in different dimensions as follows: an introduction and five dimensions .each dimension concerns with the meaning, property and uses of one of the above mentioned senses. The researchers recommend who concern in the field of Qur'an to write everything about this heavenly art to capture its treasures.

صور إعجاز البيان
في
حواس وجه الإنسان
دراسة (موضوعية - وتوجيه بلاغي)

إعداد

د. عبدالله محمد فهد
كلية أصول الدين
بغداد

د. انتصار سامي إبراهيم
كلية العلوم الإسلامية
الجامعة العراقية

المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على أشرف الخلق وأكملهم،القائل:»وأوتيتُ جوامعَ الكلم»[1]،فلم ينطق بالضاد أفصح ولا أبلغ منه،صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم .

أما بعد :

أَلِفَ العربُ لغتهم قديماً؛ فكانت مناط تفكيرهم ، ومصدر إلهامهم وإبداعهم؛ فكان الشعراء الذين بقي شعرهم خالداً، وكان ذلك واضحاً في بلاغتهم ولغتهم التي ما فتئت تباهي اللغات فصاحةً وبلاغة وجمال أسلوب، تجلى في شعر المعلقات والخطب والأمثال، كل ذلك جعل من العرب أمة فصيحة تعتمد في كلامها على الإيجاز، واللمحة الدالة التي تعد الإيماءة والإشارة من أجلى مظاهرها حتى أتى القرآن الكريم بأسلوبه المعجز، المحكم الذي خاطب العقول على رهافتها حساً ووجداناً؛ فالقرآن بحق مائدة سماوية ربانية ضمت صنوفاً من المعارف والعلوم التي لا ينقطع مددها ولا عددها ولا إمدادها غزارةً وفيوضاً تسيل غدقاً ؛ لأنها من لدن عزيز حكيم .

للإعجاز مظاهر شتى، وصنوف فرائد ذات روض أنف، لا يقطعها من يتصدى لها إلا بزاد معرفي، نما وترعرع نمو أفنان بواسق في روض مربع، تعهدهما الساقي رعايةً وسقاءً بلطف بديع ؛ لتعطي نَوْراً وروحاً وريحاناً في وقت ربيع .

فإن القرآن الكريم أوسع من أن يضيقَ بأبحاث الباحثين؛ فعلومه فاقت الحد والعد، وما هذا العمل المتواضع إلا مساهمةً صغيرةً وخدمةً لكتاب الله عز وجل وعلومه ، وما الإعجاز إلا واحداً من هذه العلوم التي شغلت العقول؛ فشُحِذَت الهمم لبيانها وإظهار معالمها وخفاياها، حتى حُمِلَ بعضُ العلماء على القول بوجوب الاشتغال بالإعجاز درساً

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، ط ٢، ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م، ١٢/ ٣٦٦ .

وإبانةً؛ فقد قال أبو بكر الباقلاني: فهو أحق بكثيرٍ مما صنفوا فيه من القول في الجزء والطفرة ودقيق الكلام في الأغراض وكثير من بديع الإعراب وغامض النحو فالحاجة إلى هذا أمسُّ والاشتغال به أوجب» (١)

وتتضح أهمية هذا البحث في كونه محاولة لبيان إعجاز خلق الله تعالى وحواسه التي يتجلى في طبيعة تكوين آلاتها، إذ جعل – سبحانه – لكل حاسة آلتها التي تختص بها، فتؤدي تلك آلالة وظيفتها التي أنيطت بها. فعندما نتأمل في الخلقة التي عليها، (حاسة السمع) تلك الحاسة التي تعد من أهم الحواس البشرية التي خلقها الله – سبحانه وتعالى– نتيقن ببالغ قدرة خالقها؛ إذ إنها وسيلة إلى المعرفة، فبها يحدث الاتصال الصوتي بما حولنا، ومن ثمَّ تحدث عملية الحوار بين المرسل والمتلقي. فهي عملية الأخذ والعطاء بينهما. فإذا فقد السمع، عدمت قدرة الإنسان على تلقي المؤثرات الخارجية السمعية، ومن ثَمَّ الاستجابة لها، فيصبح كالغائب عن الوجود، بل كالميت.

وجاء البحث على الشكل الآتي:

المقدمة، ثم جاء المبحث الأول: مفهوم الإعجاز والحواس وتعريفهما

المبحث الثاني: الإعجاز في سمع الإنسان

المبحث الثالث: الإعجاز في بصر الإنسان

المبحث الرابع: الإعجاز في ذوق الإنسان

المبحث الخامس: الإعجاز في شمّ الإنسان

الخاتمة

والمصادر والمراجع

(١) عجاز القرآن: الباقلاني . تحقيق أحمد صقر، مصر، دار المعارف، ١٩٥٤، ص٥

وقد اعتمدت في رسالتي هذه على كثير من المصادر والمراجع، منها مصادر قرآنية، شملت التفاسير، وكتب الأشباه والنظائر، وكتب معاني القرآن، وكتب إعجاز القرآن. فمن التفاسير (جامع البيان) للطبري، و (التبيان) للطوسي، و (الكشاف) للزمخشري، و (مجمع البيان) للطبرسي، و (التفسير الكبير) للرازي، و (البحر المحيط) لأبي حيان الأندلسي، وغيرها.

اللهم إن أصبت فأعني، وإن أخطأت فاغفر لي وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم .

والحمد لله رب العالمين، وسلام على المرسلين، وصلواته على أوسطهم قائد الغر المحجلين مُحَمَّد سيد البشر والشفيع المشفع في المحشر وعلى آله وأصحابه، ومن اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

المبحث الأول
مفهوم الإعجاز والحواس وتعريفهما

أولاً: الإعجاز

لإعجاز في اللغة: قال ابن فارس: « العين والجيم والزاء أصلانِ صحيحان، يدلُّ أحدُهما على الضَّعف والآخر على مؤخَّر الشيء . فالأول عَجِزَ عن الشيء يعجز عَجْزاً، فهو عاجزٌ، أي: ضَعيف . وقولهم: إنّ العجزَ نقيضُ الحَزْم فمن هذا؛ لأنه يَضْعُف رأيُه . ويقولون: المرء يَعْجِز لا مَحَالة. ويقال: أعجزَني فلانٌ، إذا عَجِزْت عن طلبه وإدراكه . ولن يُعجز لله تعالى شيء، أي: لا يَعجز الله تعالى عنه متى شاء »[1].

وفي القرآن: [لَنْ نُعْجِزَ اللهَ فِي الأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَباً [2]]وقال تعالى: [وَمَا أَنْتُمْ

(١) مُعْجَم مَقَاييس اللُّغَة، لأبي الْحَسَن أَحْمَد بن فارس بن زكريا، ت ٣٩٥ هـ)، تحقيق: عَبْد السلام هارون، دَار الكتب العلمَية، بَيْرُوْت، بلا تاريخ : مادة عجز ٢/ ٢٣٢ .

(٢) سورة الجن: من الآية ١٢ .

بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ [1].

والعَجْزُ: نقيض الحَزْم، وعَجَز عن الأَمر يَعْجِزُ وعَجِزَ عَجْزاً فيهما؛ ورجل عَجِزٌ وعَجُزٌ: عاجِزٌ . وامرأَةٌ عاجِزٌ: عاجِزَةٌ عن الشيء وعَجَّز فلانٌ رَأْيَ فلان، إذا نسبه إلى خلاف الحَزْم، كأَنه نسبه إلى العَجْز . ويقال: أَعْجَزْتُ فلاناً إذا أَلفَيْتَه عاجِزاً . والمَعْجِزَةُ والمَعْجَزَة العَجزُ [2]

والتَّعْجِيزُ: التَّثْبِيط، وقوله تعالى: [وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ [3])؛ معناه ظانِّين أَنهم يُعْجِزُوننا لأَنهم ظنوا أَنهم لا يُبعثون وأَنه لا جنة ولا نار [4] .

وقيل في التفسير: « مُعاجزين معاندين وهو راجع إلى الأَوّل وقرئت مُعَجِّزين، وتأْويلها: أَنهم يُعَجِّزُون من اتبع النبي ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ـ ويُثَبِّطُونهم عنه وعن الإِيمان بالآيات وقد أَعْجَزَهم « [5] .

ومعنى الإِعْجاز: « الفَوْتُ والسَّبْقُ، يقال: أَعْجَزَني فلان، أَي: فاتني؛ وقال الليث: أَعْجَزَني فلان إِذا عَجَزْتَ عن طلبه وإِدراكه . ويقال: عَجَزَ يَعْجِزُ عن الأَمر إِذا قَصَرَ عنه . ويقال: فلان يُعاجِزُ عن الحق إِلى الباطل، أَي: يلجأ إليه .والمُعْجِزَةُ:

(١) سورة العنكبوت: من الآية ٢٢، سورة الشورى: من الآية ٣١ .
(٢) يُنْظَرْ لِسَان العَرَب . لأبي الْفَضْل جمال الدِّين مُحَمَّد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري ت ٧١١هـ. الطَبْعَة الأُولَى . دَار صادر . بَيْرُوْت . لُبْنَان . ١٩٦٨م: مادة عجز ٥/ ٣٧٣؛ والْقَامُوس الْمُحِيط . لأبي الطَّاهِر مجد الدِّين مُحَمَّد بن يعقوب الفيروزآبادي الصِّدِّيقي الشيرازي . ت ٨١٧هـ. مؤسسة الرسالة . بَيْرُوْت . لُبْنَان . د . تمادة عجز): ٢/ ٦٦٤ .
(٣) سورة الحج: من الآية ٥١ .
(٤) يُنْظَرْ مَعَاني الْقُرْآن الكريم، لأبي جعفر أَحْمَد بن مُحَمَّد بن إسماعيل المرادي النحاس ت ٣٣٨هـ. تَحْقِيق: مُحَمَّد علي الصابوني ،ط١ جامعة أم القرى . مكة المرمة . ١٤٠٩هـ: ٥/ ٣٩٣؛ الصِّحَاح تَاج اللُّغَة وصحاح العَرَبيّة، لإسماعيل بن حماد الجوهري، ت ٣٩٣هـ)، تحقيق: أَحْمَد عَبْد الغَفُوْر عطا، الطَبْعَة الثانية، دَار العلم للملايين، بَيْرُوْت، لُبْنَان، ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٧م: مادة عجز٣/ ٨٨٤ .
(٥) تفسير الْقُرْآن . لعَبْد الرَّزَّاق بن همام الصنعاني . ت ٢١١ هـ. تَحْقِيق: د . مصطفى مسلم مُحَمَّد . الطَبْعَة الثانية . مكتبة الرشد . الرياض . ١٤١٠هـ: ٣/ ١٢٦ .

واحدة مُعْجِزات الأَنبـياء ـ عَلَيْهِ السَّلام ـ «[1].

والمعجزة: مشتقة من الإعجاز، وهي اسم فاعل له ولحقتها تاء التأنيث بعد نقلها من الوصفية للاسمية[2].

والإعجاز مصدر الفعل عجز، وفعله رباعي هو أعجز، تقول: أعجز يعجز إعجازاً واسم الفاعل معجز[3].

وعن أصل العجز يقول الراغب: «والعجز أصله التأخر عن الشيء، وحصوله عند عجز الأمر .. وصار في التعارف اسماً للقصور عن فعل الشيء، وهو ضد القدرة . قال تعالى: [أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ] [4] وأعجزت فلاناً وعجزته وعاجزته: جعلته عاجزاً «[5].

وعلى هذا فإعجاز القرآن الكريم يعني تفوقه وسبقه في كل مجال كان فيه التحدي بما لا يستطيع أحد أن يصل إليه أو يضاهيه .

الإعجاز في الاصطلاح:

المعجزة: « أمر خارق للعادة، داعٍ إلى الخير والسعادة، مقرون بدعوى النبوة قصد به

---

(١) تَاج العَرُوْس من جَوَاهِر الْقَامُوس . لمحيي الدِّين أَبي الْفَضْل مُحَمَّد مرتضى الحسيني الواسطي الْحَنَفِيّ الزُّبَيْدِيّ . ت ١٢٠٥هـ. مكتبة الحياة . بَيْرُوْت . د . ت): مادة عجز٤/ ٥٣.

(٢) يُنْظَرُ: حَاشِيَة العلامة أَحْمَد بن مُحَمَّد الصَّاوي المالكي الخَلْوَتي، ت ١٢٤١هـعلى شَرْح الخَريدة البَهيَّة، لأبي البَرَكات أَحْمَد بن مُحَمَّد بن أَحْمَد الدَّرْدِيْر العَدَوي المالكي، ت ١٢٠١هـ)، مطبعة الاستقامة، القاهرة، بلا تاريخ: ٩٧ .

(٣) الْمِصْبَاح الْمُنِير في غَريب الشَرْح الكَبِيْر . لأَحْمَد بن مُحَمَّد بن علي الفيومي المقرئ ،ت ٧٧٠هـ. تصَحِيْح: مصطفى السقا، ط١ . مطبعة مصطفى البابي الحلبي . مصر . ١٣٢٢هـ: ٢/ ١٤٩ .

(٤) سورة المائدة: من الآية ٣١ .

(٥) الْمُفْرَدَات في غَريب الْقُرْآن، لأبي القاسم بن حسين بن مُحَمَّد المعروف بالراغب الأصفهاني، ت ٥٠٢هـ)، أعده للنشر وأشرف عَلَى الطبع: د . مُحَمَّد أَحْمَد خلف الله مكتبة الأنجلو المصرية، بلا تاريخ: ٣٢٢ .

إظهار صدق من ادعى أنه رسول من الله «[1]

وقيل: هي الأمر الخارق للعادة المطابق للدعوى المقرون بالتحدي[2].

وقال القاضي عبد الجبار: « معنى قولنا في القرآن أنه معجز: أن يتعذر على المتقدمين في الفصاحة فعل مثله في القدر الذي اختص به «[3].

وقال الداوني: « هي الأمر الخارق للعادة، السالم من المعارضة يظهره الله تعالى على يد نبي، تصديقاً له في دعوى النبوة «[4].

والإعجاز في الكلام: هو تأديته بطريق أبلغ من كل ما عداه من الطرق[5].

وتوضيح ذلك أن الإعجاز في شيئين، هما:

ضعف القدرة الإنسانية في محاولة المعجزة، ومزاولته على شدة الإنسان واتصال عنايته .

ثم استمرار هذا الضعف على تراخي الزمن وتقدمه، فكأنَّ العالم كله في العجز إنساناً

---

(١) التَّعْريفات . لأبي الْحَسَن علي بن مُحَمَّد بن علي الجرجاني المعروف بالسيد الشريف . ت ٨١٦هـ. تَحْقيق: إبْرَاهيم الأبياري . الطَبْعَة الأُولَى . دَار الكِتَاب العَرَبيّ . بَيْرُوْت . ١٤٠٥هـ: ٢٨٢ .

(٢) مجمع الْبَحْرين . لفخر الدِّين الطريحي . ت ١٠٨٥هـ) . تَحْقِيق: أَحْمَد الحسيني . الطَبْعَة الثانية . مكتب نشر الثقافة الإسْلاميّة . ١٤٠٨هـ: ٣/ ١٢٦ .

(٣) الْمُغْنِي فِي أَبْوَابَ العدل والتوحيد . للقاضي أَبِي الْحَسَن عَبْد الجبار الأسد آبادي المعتزلي، ت ٤١٥ هـ)، حرر نصه: أمين الخولي، أشرف عَلَى إحيائه: طه حسين، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للكتاب، الطَبْعَة الأُولَى، القاهرة، بلا تاريخ: ١٦/ ٢٢٦ .

(٤) شَرْح جلال الدِّين الدَّوَاني عَلَى العقائد العضدية . الطَبْعَة الأُولَى . دَار الطباعة العامرة . ١٣١٧هـ: ٢/ ٢٧٦.

(٥) التوقيف عَلَى مهمات التعاريف . لمُحَمَّد عَبْد الرؤوف المناوي . ت ١٠٣١هـ. تَحْقِيق: د . مُحَمَّد رضوان الداية . الطَبْعَة الأُولَى . دَار الفكر المعاصر ـ دمشق، ودَار الفكر للطباعة والنشر . ـ بَيْرُوْت . ١٤١٠هـ: ٧٥ .

واحداً، ليس له غير مدنه المحدودة بالغة ما بلغت[1].

وهذه التعريفات متقاربة في مدلولاتها، تشير جميعها إلى أن المعجزة أمر خارق للعادة يظهر الله تَعَالَى به صدق أنبيائه ورسله عَلَيْهِم السَّلام ـ .

وإذا كان هذا معنى الإعجاز، فبإضافته إلى القرآن، ومنهما يكون مصطلح: إعجاز القرآنيكون المراد: إثبات القرآن عجز الخلق عن الإتيان بما تحداهم به، وهو أن يأتوا بمثله أو بشيء من مثله، فهو من إضافة المصدر إلى فاعله، والمفعول محذوف للدلالة على عموم من تحداهم القرآن، وهم الإنس والجن، وكذلك ما تعلق به الفعل محذوف للعلم به، وهو القرآن أو بعضه كما ثبت في كثير من آيات التحدي .

ويكتمل بيان المراد بهذا المصطلح إذا عرفنا أن إعجاز القرآن مَن تحداهم عن الإتيان بمثله أو بشيء من مثله ليس أمراً مقصوداً لذاته، وليس هو الغاية في نفسه، ولكن المقصود هو اللازم الناتج عن هذا الإعجاز، وهو إظهار وإثبات أن هذا الكتاب حق، ووحي من عند الله تعالى ومقتضى ذلك كله إثبات صدق الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما جاء به قومه من الرسالة، ودعاهم إليه من الإسلام، وعليه فإن حقيقة الإعجاز وهى إثبات العجز لمن وقع عليه التحدى استلزمت إظهار هذا العجز، وهذا الإظهار بدوره استلزم إظهار صدق رسول الله ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ـ وهو المقصود الأول من الإعجاز .

من هذا يتبين التوافق بين الاستخدامين اللغوي والاصطلاحي، إذ أن المعنى الاصطلاحي جاء متوافقاً مع أصل اللغة .

ثانياً: الحواس

ترد مادة (حسَّ) في اللغة على وجهين: أحدهما – بفتح الحاء – (حَسَّ)، والآخر –

(١) يُنْظَرُ: إعجاز الْقُرْآن والبلاغة النبوية، لمصطفى صادق الرافعي . ضبطه وصححه وحقق أُصُوله: مُحَمَّد سعيد العريان . الطَبْعَة الرابعة . مطبقة الاستقامة . ١٣٥٩ هـ ـ ١٩٤٠م : ١٣٩ .

بكسرها- (حِسَّ). قال الخليل[1] (ت ١٧٥ هـ): (الحَسُّ: القَتْلُ الذَريعُ)). يُقال: (حَسَّهم يَحُسُّهم حَسّاً: قَتَلَهم قَتْلاً ذريعاً مستأصِلاً))[2]. والحَسيسُ: القَتِيل[3].

وقد علل الراغب[4] (ت ٤٢٠ هـ) وجه إطلاق الحَسِّ على القتل، بأنه (لما كان ذلك قد يتولد منه القتل، عبر به عن القتل، فقيل: حَسَسْتُهُ، أي قتلته)).

أما الحِسُّ والحَسِيسُ فهو: (الصوتُ الخَفِيُّ))[5]، والحسُّ - بكسر الحاء - الشعور بالشيء. والعلم به، قال ابن منظور(ت ٧١١هـ): (والحِسُّ، بكسر الحاء: من أَحْسَسْتُ بالشيء . حسَّ بالشيء يَحُسُّ حَسّاً وحَسِيساً. وأَحَسَّ به وأَحَسَّه: شعر به)). ويقال: (هَلْ أَحْسَسْتَ صَاحِبَكَ، أي: هَلْ عَلِمْتَ به، وأدركْتَهُ بِحِسَّك وَوَجَدْتَه))[6] ؟ ومنه أيضاً: تَحَسَّسَ الخبر: تَطلبَّهُ وتبحثَّهُ[7] . وعرَّف الفخر الرازي(ت ٦٠٦هـ) (التحسس) بأنه: (طلب الشيء بالحاسة))، وبين أنه (شبيه بالسمع والبصر)).[8]

أما الإحساس - بكسر الهمزة - فهو (عبارة عن وجدان الشيء بالحاسة))[9] وقيل: إنه ((الإدراك ببعض الحواس الخمس، وهي السمع والبصر والشم والذوق واللمس))[10]. فالحواس إذن تتناول، ما هو محسوس من المدركات التي في الخارج، وذلك بإحدى هذه الحواس.

---

(١) العين ٣/ ١٥ (حسّ).
(٢) لسان العرب، ابن منظور ٦/ ٥١ (حسّ).
(٣) مقاييس اللغة: ابن فارس ٢/ ٩ (حسّ)، واللسان ٦/ ٥٢ (حسّ).
(٤) المفردات في غريب القرآن ص١٦٦ (حسّ).
(٥) ا لسان العرب، ابن منظور ٦/ ٤٩ (حسّ).
(٦) شرح الفصيح: لابن هشام اللخمي ص٨٦.
(٧) اللسان ٦/ ٥٠ (حَسّ).
(٨) التفسير الكبير ١٨/ ١٩٨.
(٩) التفسير الكبير ٨/ ٦٤.
(١٠) البحر المحيط: أبو حيان الأندلسي ٢/ ٤٧٠.

غير أن من أهل العلم من تجوّز في مفهوم الحواس، فأضاف إلى المدركات الحسّية، ما يدرك بالأحاسيس الداخلية، وهي النفسية، ولذا قيل في تعريفه: إنه ((إدراك الشيء بإحدى الحواس الخمس الظاهرة أو الباطنة، فإن كان الإحساس بالحس الظاهر فهو المشاهدة وان كان بالحس الباطن فهو الوجدان))[1].

وأورد ابن الجوزي[2] (ت ٥٩٧هـ) تعريفا للحسّ مبيناً فيه طرق الحس الخارجية، وذاكراً إنه: (إدراك النفس ما لا تدركه بآلات الحِسّ))، ومبيناً بعد ذلك أن آلات الحس خمس:

إحداها: السمع، وهي الحاسة المدركة للأصوات، ووصفها بأنها أدق الحواس وأغمضها في كيفية تحصيل الإدراك بها.

والثانية: البصر، وهي الحاسة التي تدرك بها المُبصَرات، وأنها أغلظ من السمع وأدق من غيره.

والثالثة: الشم، وهي الحاسة التي تدرك بها الروائح الطيبة والكريهة.

والرابعة: الذوق، وهي الحاسة التي يدرك بها الطعوم من الحلو والحامض وغيره.

والخامسة: اللمس، وهي الحاسة التي يدرك بها الناعم من الخشن، ووصفها بأنها أغلظ الحواس.

ولما كان أصل الإحساس راجعاً إلى الحاسة، فالحاسة: هي القوة التي تُدرك بها ، الأعراض الجسمَّية. والحواس هي المشاعر الخمس[3] .

وإذا انتقلنا إلى معرفة الإحساس من وجهة نظر علماء النفس، وجدناهم يعرفونه

(١) جامع العلوم في اصطلاحات الفنون: الأحمد نكَرى ١/ ٤٩.
(٢) نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر ١/ ٢٤٠.
(٣) بصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز: الفيروز آبادي ٢/ ١٥٣-٤٥٩.

بتعاريف عدة، منها أن الإحساس: ((هو تلقي المؤثرات الخارجية بالحواس المختلفة، بما يؤدي إلى إدراكها، فالإحساسات تكون بصرية أو سمعية وهكذا حسب أنواع الحواس المختلفة))[1] .

وقيل: إن الإحساس هو: قرع المنبهات الحسية لحواسنا، وانتقال أثر هذه المنبهات إلى المخ عن طريق أعصاب خاصة، وتحول هذه المنبهات إلى حالات شعورية نوعية بسيطة. فهو الأثر النفسي الذي ينشأ مباشرة من انفعال حاسة أو عضو حاس، وتأثر مراكز الحس في الدماغ، كالإحساس بالألوان والأصوات والروائح والمذاقات والحرارة والبرودة والضغط[2] .

والإحساسات لدى الإنسان على ثلاثة أنواع[3] :-

١- احساسات باطنية عامة: وهي مجموعة الاحساسات الخاصة بداخل البدن كامتلاء الأمعاء، وتغير الحالة الكيميائية للجسم بنقص الماء والملح.

٢- احساسات باطنية خاصة: وتتصل بالجهاز العضلي للجسم، كالإحساس بالحركة والإحساس بالأتزان وهو - وضع الجسم - إحساس تلقائي حشوي.

٣- إحساسات خارجية: وهي الإحساسات المتعلقة بالعالم الخارجي، التي تخضع للجهاز العصبي المركزي. وهذه الإحساسات هي الإستجابة للمثيرات الخارجية، فمن المعروف أن للإنسان خمس أنواع الاحساسات، هي السمع والبصر واللمس والذوق والشم، وهي نوافذ الجسم إلى العالم الخارجي.

(١) السلوك الاجتماعي بين علم النفس والدين: فوزي سالم عفيفي ص٦٧.
(٢) أصول علم النفس العالم: الدكتور احمد عزة راجح ص١٨٧.
(٣) المدخل إلى علم النفس العام: الدكتور احمد فائق، والدكتور محمود عبد القادر ص٨٧-٨٨.

والحواس في الإنسان وسيلة للإدراك، أما لحدوثه أو لحفظه[1]، والإدراك عملية عقلية تنتج من الإحساس[2]. أو بعبارة أخرى: إن الإدراك: ((هو العلم بما حولك أو بما تسمع أو بما يخطر على بالك. أي: الإحساس الإدراكي بالحواس الخمسة المختلفة التي بها تستطيع أن تدرك وتعلم))[3]. ولكي يحدث الادراك لابد من حدوث الإحساس.

وتتضح حكمة الله – سبحانه وتعالى – من جعل الحواس مقابلة للمحسوسات، في أن لكل حاسة من الحواس شيئاً تدركه، وتختص بإدراكه، إذ ((لاشك أنَّ الله تعالى خلق كلاً من الحواس الإدراك أشياء مخصوصة كالسمع للأصوات والذوق للطعوم، والشم للروائح، لا يدرك بها ما يدرك بالحاسة الأخرى))[4].

المبحث الثاني
الإعجاز في سمع الإنسان

أنعم الله –سبحانه وتعالى– على الإنسان، بأن جعل له تلك الحواس التي ينتفع بها في حياته، وتشعره بعظمة خالقه، وقدرته البالغة في السموات والأرض، فكانت في تكوينها، وتركيبها، تبهر العقل، وتدهش الفكر، لما فيها من الفوائد الجمّة. وقد قال تعالى: { **اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَاراً وَالسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ** }[5]

إنَّ الإعجاز في الحواس الإنسانية يتجلى في طبيعة تكوين آلاتها، إذ جعل – سبحانه – لكل حاسة آلتها التي تختص بها، فتؤدي تلك آلالة وظيفتها التي أنيطت بها. فعندما نتأمل في الخلقة التي عليها، (حاسة السمع) تلك الحاسة التي تعد من أهم الحواس

(١) جامع العلوم ٢/ ٥.
(٢) السلوك الاجتماعي بين علم النفس والدين ص٦٧.
(٣) السلوك الاجتماعي بين علم النفس والدين ص٢٠.
(٤) كشاف اصطلاحات الفنون: التهاوني ٢/ ٤٥.
(٥) غافر ٦٤.

البشرية التي خلقها الله – سبحانه وتعالى– نتيقن ببالغ قدرة خالقها؛ إذ إنها وسيلة إلى المعرفة، فبها يحدث الاتصال الصوتي بما حولنا، ومن ثمَّ تحدث عملية الحوار بين المرسل والمتلقي. فهي عملية الأخذ والعطاء بينهما. فإذا فقد السمع، عدمت قدرة الإنسان على تلقي المؤثرات الخارجية السمعية، ومن ثَمَّ الاستجابة لها، فيصبح كالغائب عن الوجود، بل كالميت.

السمع في اللغة: – بفتح السين وسكون الميم– إيناسُ الشيء بالأُذُن[1]. إذ يقال: ((سَمِعْتُ الشيءَ سَمْعاً وسَمَاعاً))[2]. قال ابن منظور (ت ٧١١هـ): (السّمْعُ: حِسُّ الأُذُنِ ... والسُّمْعُ أيضاً: الأُذُنُ، والجمع أسْماعٌ))[3].

والاستماعُ: الإصغاء[4]؛ إذ يقال: ((اسْتَمَعْتُ كذا، أي أصغيتُ، وتَسَمَّعْتُ إليه))[5].

وفرق أبو هلال العسكري(ت ٣٩٥هـ) بين (السمع) و (الاستماع)، فذكر: ((أن الاستماع هو استفادةُ المسموعِ بالإصغاء إليه لِيُفْهَم، ولهذا لا يُقال إنّ الله يستمع . وأما السماع فيكون اسماً للمسموع، يقال لما سمعته من الحديث: هو سَماعي، ويقال للغناء سَماع ... والتَسَمُّع: طَلَبُ السَمْعِ)) .[6] ففي الاستماع عنصر دلالي إضافي هو طلب السمع والإصغاء إلى المسموع بشدة، للإحاطة به على أكمل وجه، فهو أشد السمع وأقواه .

وفي القرآن الكريم ورد الفعل (سمع) في مئة وخمسة مواضع[7]، وبصيغ مختلفة،

(١) مقاييس اللغة: ابن فارس ٣/ ١٠٢ (سمع) .
(٢) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: الجوهري ٣/ ١٢٣١ .
(٣) لسان العرب ٨/ ١٦٢ (سمع).
(٤) المفردات غريب القرآن: الراغب الأصبهاني ص ٣٥٤ (سمع) .
(٥) الصحاح ٣/ ١٢٣٢ (سمع) .
(٦) الفروق اللغوية ص ٧٠ .
(٧) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن: محمد فؤاد عبد الباقي ص ٤٥٤ وما بعدها .

فورد بصيغة الفعل الماضي في ثلاثين موضعاً، وبصيغة الفعل المضارع في اثنين وستين موضعاً، وبصيغة الأمر في اثنى عشر موضعاً . وقد ورد مجرداً تارة، ومزيداً تارة أخرى .

ورد الفعل (سمع) في القرآن الكريم في سياقين أحدهما: حسّي، والآخر معنوي.

فأما السياق الحسّي فقد ورد الفعل (سمع) فيه بمعناه (الفسيولوجي)، وهو إدراك الصوت بالأذن، وهذا في القرآن كثير، ومنه قوله تعالى: [**خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا**][1]. والمعنى: ((قالوا سمعنا قولك، وعصينا أمرك))[2]، وفسره الراغب[3] (ت ٤٢٠ هـ) بالفهم فبين أن المعنى: ((فهمنا قولك، ولم نأتمر لك)). والوجه الأول أظهر .

ويلحظ في هذه الآية أن قولهم طابق الأمر بالسماع، فقد أمروا بالسماع فقالوا: (سمعنا)، فكيف عطف عليه العصيان مع قولهم هذا ؟ الجواب أن للمفسرين في تعليل ذلك قولين:

الأول: أن يحمل قولهم على الحقيقة، ومعناه: سمعنا قولك وعصينا أمرك . قال الزمخشري[4] (ت ٥٣٨ هـ): ((فان قلت: كيف طابق قوله جوابهم ؟ قلت: طابقه من حيث أنه قال لهم اسمعوا، وليكن سماعكم سماع تقبل وطاعة، فقالوا: سمعنا، ولكن لا سماع طاعة)) . وهذا يعني أن قولهم: سمعنا يدل على أنهم سمعوا قول النبي – صلى الله عليه وسلم– بآذانهم، ولكنهم لم يطيعوه لذا قالوا: (عصينا) .

والثاني: أن قوله (سمعنا) و (عصينا) مجاز، فهم لم ينطقوا بشيء من الجملتين، ولكن لما لم يقبلوا شيئاً مما أمروا به، جعلوا كالناطقين بذلك، إذ قد يعبر بالقول للشيء عما يفهم

(١) البقرة ٩٣ .
(٢) معاني القرآن: الفراء ١/ ٦١، الكشاف ١/ ١٦٦، مجمع البيان: ١/ ١٦٢ .
(٣) المفردات في غريب القرآن ص ٣٥٣ (سمع) .
(٤) الكشاف ١/ ١٦٦، وينظر: البحر المحيط ١/ ٣٠٨ .

عن حاله، وإن لم ينطق به[1] .

والأولى حمل اللفظ على ظاهره، فقد قالوا (سمعنا) بألسنتهم، إلا أنهم لم يطيعوا؛ لذا جاء التعبير بـ (سمعنا) و (عصينا) . فهذا ما ورد هنا .

في حين ورد (السمع) في سياق آخر مقروناً بالطاعة، دالاً على أحد معنيين:

الأول: حسي وهو سماع قول النبي -صلى الله عليه وسلم- .

والثاني: معنوي وهو قبول قوله -صلى الله عليه وسلم- .

فالأول ورد في قوله تعالى: **[إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا]**[2]. والمعنى: ((سمعنا قول النبي -صلى الله عليه وسلم- وأطعنا أمره))[3]. وقيل: معناه: قبلنا هذا القول وأجبنا حكم الله ورسوله ونفذناه[4] .

وورد الفعل (سمع) في هذه الآية بلفظ الماضي دون المضارع، ليدل على أن صفة الإيمان والطاعة راسخة فيهم .

ومن هذا الوادي، صون المؤمن أذنه عن سماع اللغو والإعراض عنه.

فقد بين الله سبحانه ما هو باطل، وهو سماع اللغو، فقال: **[وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ]**[5] . فالحق بالإعراض القول . والمعنى: إنهم ((إذا سمعوا ما لا يجوز وينبغي أن يلغى، لم يلتفتوا إليه))[6] .

---

(١) البحر المحيط ١/ ٣٠٨ .
(٢) النور ٥١ .
(٣) مجمع البيان ١٨/ ١٥٠، البحر المحيط ٦/ ٤٦٨ .
(٤) مجمع البيان ١٨/ ١٥٠ .
(٥) القصص ٥٥ .
(٦) معاني القرآن وإعرابه: الزجاج ٤/ ١٤٩ .

فهذه حال المؤمن الذي يصون أذنه عن سماع كل ما يصده عن الاستجابة للرسول -صلى الله عليه وسلم-، بعد أن هداه إلى طريق النجاة، وهو طريق الجنة، وكسب مرضاة الله.

وقد يخرج الفعل (سمع) من دلالته الحسية إلى دلالته المعنوية، فيدل على معان عدة، منها القبول، والطاعة، وذلك في قوله تعالى: [**يَـأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا**][1]، فقد ورد السمع هنا بصيغة الأمر (اسمعوا) وهو محتمل لمعنيين[2]:

الأول: المعنى الحقيقي للفظ، وهو الاستماع بالحاسة. فيكون المعنى: اسمعوا ما يأتيكم به الرسول.

والثاني: المعنى المجازي، وهو القبول والطاعة، والمعنى: اقبلوا ما يأمركم به. وهو كقولهم سمع الله لمن حمده، وسمع الله دعاءك أي قبله.

واحتمال اللفظ لهذين المعنيين يدل على أن أحدهما مكمل للآخر؛ لأنه متى ما حصل السماع أتبعه القبول والطاعة؛ لأن مدار التكليف عليهما.

وجاء الفعل (سمع) بصيغة الأمر تأكيداً على وجوب سماع ما يبينه لهم الرسول -صلى الله عليه وسلم- من أحكام ومواعظ، وقبوله.

وجاء الفعل (سمع) بصيغة الأمر تأكيداً على وجوب سماع ما يبينه لهم الرسول -صلى الله عليه وسلم- من أحكام ومواعظ، وقبوله.

واستعمل القرآن صيغة الأمر من فعل الاستماع للدلالة على إطاعة داعي الحق، وذلك ما ورد على لسان العبد الصالح في حث قومه على سماعه وقبول نصيحته بوجوب

(١) البقرة ١٠٤.
(٢) مجمع البيان ١/ ١٧٨، البحر المحيط ١/ ٣٣٩.

إيمانهم بالله ورسوله المرسل إليهم: [**إِنِّى ءَامَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُون**][1] أي: ((اسمعوا قولي وأطيعون))[2] في قبول هذه النصيحة واتباع الحق . وجيء بصيغة الأمر على جهة المبالغة والتنبيه .

ولما كان السمع في بعض موارده يعني الطاعة والقبول، وعدم السمع يعني العصيان عبر القرآن عن نفي الاستجابة والطاعة بنفي السمع، وذلك في قوله تعالى: [**أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ**][3] فجعل الطبع على القلب سبباً لعدم السماع، ومن ثم لعدم الاستجابة والإيمان؛ لأن من تمكن الكفر والعصيان منه، وملأ قلبه، لا استعداد لديه للإجابة والإيمان. والمعنى: أنهم: ((لا يسمعون الوعظ ولا يقبلونه))[4]. فنفي السماع هنا إنما هو نفي للقبول والاتعاظ[5].

فهذه عقوبة من الله سبحانه وتعالى للذين اتضحت لهم سبل الرشاد فراغوا عنها ولم يتبّعوها . وبيّن لهم ما أصاب الأمم الأخرى، بسبب اقترافهم الذنوب، وهم مع هذا لا يتعظون، فكأنّ الله سبحانه قد طبع بذلك على قلوبهم وعلى سمعهم عقوبة لهم، وعلى هذا الكفر والإعراض .

وقد كانت الأُذُن آلة السمع، هذه الحاسة تعد حلقة من حلقات اتصال هذا المخلوق البشري بما حوله من علامات محيطات[6] دالات على وجود الخالق سبحانه وصفاته.

---

(١) يس ٢٥ .
(٢) البحر المحيط ٧/ ٣٢٩ .
(٣) الأعراف: ١٠٠
(٤) مجمع البيان ٩/ ٤٥٤.
(٥) التفسير الكبير ١/ ١٨٧،البحر المحيط ٤/ ٣٥٠ .
(٦) إعجاز القرآن في حواس الإنسان: الدكتور محمد كمال عبد العزيز ص٦١.

وفضلاً عن ذلك، ((فإن التعليم والتعلم والنطق موقوفة عليه، وهو يتعلق بالقريب والبعيد))[1]

ولما كانت الأُذُن آلة السمع، فقد جعلها الله -سبحانه وتعالى- في تركيب يتلاءم والوظيفة المنوطة بها، إذ جعلها أذنين، وجعل السمع من جهتين، بأن ((شقهما تبارك وتعالى في جانبي الوجه، وأودعهما من الرطوبة ما يكون معيناً على إدراك السمع. وأودعهما القوة السمعية ... وجعل سبحانه الأُذُن عضواً غضروفياً ليس بلحم مسترخ، ولا عظم صلب، بل هي بين الصلابة واللين، فتقبل بلينها، وتحفظ بصلابتها، ولا تنصدع انصداع العظام، ولا تتأثر بالحر والبرد، والشمس والسموم تأثر اللحم، إذ المصلحة في بروزها؛ لتتلقى ما يرد عليها من الأصوات والأخبار))[2] .

ومما يزيد من الشعور بالإعجاز الخلقي في تكوين آلة السمع، هو أن الله -سبحانه- جعل للسمع فيها طريقتين: أحدهما طريق العصب السمعي، والآخر طريق عظام الرأس والجمجمة. وليس ذلك إلا لحكمة؛ وهي إنه إذا حدث خلل في إحداهما، كان الطريق الآخر سليماً ويؤدي وظيفته[3] .

وأما الحكمة في جعله تعالى للإنسان أذنين على يمين الوجه وشماله فهي ((لكون إدراكهما لما خلف الإنسان، وأمامه، وعن يمينه وعن شماله سواء. فتأتي المسموعات إليهما على نسبة واحدة))[4] .

فبهذا يدرك الإنسان قدرة الخالق على إيجاد هذه الخارقة العجيبة التي يعجز الإنسان برغم تقدم العلم عن صنع جهاز، يقارب جهازها المتقن في تكوينه، وفي إداء وظيفته،

(١) جامع العلوم ٢/ ١٨٢.
(٢) التبيان في أقسام القرآن: ابن قيّم الجوزية ص١٩٢.
(٣) إعجاز القرآن في حواس الإنسان ص٢٣.
(٤) التبيان في أقسام القرآن ص١٩٢.

وذلك يدل على إنه لم يكن إلا من صنع خبير عليم، فلم يبق بعد ذلك سوى الاتعاظ والإيمان بالقدرة الإلهية المتقنة لكل شيء، ولذا قال تعالى: { **صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ** }[1] .

المبحث الثالث
الإعجاز في بصر الإنسان

ورد (البصر) في اللغة بدلالتين: حسّية ومعنوية. والأصل فيه حسّي بوروده في اللغة للدلالة على: ((حاسة الرؤية))[2]، يقال: أبصرتُ الشيء أي: رأيتُه[3]

والبَصَرُ هو النور الذي تُدْرِك به الجارحة المُبْصَرات . وجمع البصر: أبْصار، والباصِرَة: الجارِحة الناظرة[4]. وينسب البصر للعلم بالشيء، فيقال: ((بَصُرْتُ بالشيءِ إذا صِرْتَ به بصيراً عالماً))[5] . وبصرْتُ بالشيء: إذا عَلِمْتُهُ. ويقال للحجة والاستبصار في الشيء: بصيرة[6]. والتَبَصُّر: التَأَمُّلُ والتعرُّفُ. والتَبَصُّر: التعريف والإيضاح[7] .

وفي الاصطلاح عُرّف البصر بأنه: الجوهر اللطيف الذي ركّبه الله في الإنسان، وبه تُدْرِكُ حاسة النظر المُبْصِرات[8].

وعلى هذا فإن البصر نور العين الذي تدرك به المبصرات، وأن البصيرة نور الإدراك العقلي الذي يكون به الاستبصار والاعتبار .

---

(١) النمل (٨٨).
(٢) الصحاح ٢/ ٥٩١ .
(٣) ينظر: لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٦٤ (بصر) .
(٤) مقاييس اللغة ١/ ٢٥٤ (بصر) .
(٥) الصحاح ٢/ ٥٩٢ (بصر) .
(٦) المصدر نفسه والصفحة نفسها .
(٧) الكشاف ٢/ ٥٤ .
(٨) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن ص ١٥٤ .

وفي القرآن الكريم ورد الفعل (بصر) في أحد وثلاثين موضعاً، منها أربعة بصيغة الماضي، وثلاثة وعشرون بصيغة المضارع، وأربعة بصيغة الأمر .

وقد ورد الفعل (بصر) في القرآن الكريم بدلالات مختلفة، وسياقات عدة . فورد بدلالته الحسية التي هي ((إدراك الشيء بحاسة البصر))[1]، وذلك في تصوير حال المنافقين، وهم يتخبطون في الضلال، بعد أن تبين لهم نور الإيمان، فأظهروا الإيمان، وأبطنوا الكفر، مع نور الحق ظهر لهم، فقال تعالى في صفتهم بأسلوب التشبيه: [**مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَـٰتٍ لا يُبْصِرُونَ**][2] .

فشبه -سبحانه- حال المنافقين في الحيرة والاضطراب، بحال الساري الذي اوقد ناراً لتضيء له الطريق، فلما اتضح له ذلك الطريق، وعرف موضع قدمه فيه ذهب عنه الضوء فجأة، وخيم الظلام على المكان، فاضطرب اتجاهه، وأصبح يسير على غير هدى . فكذلك حال المنافقين، إذ كانوا في ظلمة الكفر، والنفاق، لا يعرفون الحق من الباطل، فلما أضاء لهم الإسلام نور الحق عادوا إلى ما كانوا عليه من الكفر، والنفاق .

وقد علل ابن قتيبة[3] (ت ٢٧٦ هـ) التشبيه في الآية فبين أن: ((الظلمة الأولى التي كانوا فيها: الكفر، واستيقادهم النار قولهم: (لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله) فلما اضاءت لهم ما حولهم واهتدوا وآمنوا خلوا إلى شياطينهم فنافقوا، وقالوا: [**إِنَّا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ**][4] فسلبهم نور الإيمان، وتركهم في ظلمات الكفر لا يبصرون)) .

ومن هذا الوادي التعبير بفعل الأمر (أبصر) عن النظر إلى عاقبة ما سيحل بالمشركين

(١) مجمع البيان ١/ ٥٤ .
(٢) البقرة ١٧ .
(٣) تأويل مشكل القرآن ص ٣٦٢ .
(٤) البقرة ١٤ .

من القتل والأسر[١]، وذلك نتيجة لإصرارهم على معاداة الرسول محمد -صلى الله عليه وسلم-، فتوعدهم الله -سبحانه وتعالى- بذلك، بقوله: [وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ][٢]، والمعنى: ((أنظر إلى عاقبة أمرهم فسوف يبصرونها، وما يحل بهم من العذاب والأسر والقتل، أو سوف يبصرونك وما يتم لك من الظفر بهم والنصر عليهم))[٣]. فلما كان الأسر والقتل الذي سيصيب الكفار من الأمور المرئية، عبر عنه (بالبصر). وهو وعيد بما حل بهم يوم بدر[٤].

وقيل (البصر) هنا يراد به المعنوي، وهو ما يدركه الإنسان بطريق العقل، والمعنى: ((وأبصر حالهم بقلبك فسوف يبصرون ذلك في القيامة معاينة))[٥].

ويلحظ أن الله -سبحانه وتعالى- كرر هذه الوعيد فقال: [وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ][٦]، لغرض التأكيد . وقد يراد بالأولى عذاب الدنيا، وبالثانية عذاب الآخرة[٧] .

وجيء بالفعل (بصر) بصيغة الأمر في هذه الآية، للدلالة على أن ما توعدوا به واقع لا محالة . وأن وقوعه قريب حتى كأنه بين ناظريه الذي تُوعِّد بحيث يبصره[٨]. فورد الفعل بذلك كناية عن تحقيق وقوع الحدث؛ لأن تحديق البصر لا يكون إلا إلى شيء أشرف على الحلول[٩].

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/ ١٧٢، البحر المحيط ٧/ ٣٨٠.
(٢) الصافات ١٧٥ .
(٣) البحر المحيط ٧/ ٣٨٠ .
(٤) التحرير والتنوير ٢٣/ ٤٦٢ .
(٥) مجمع البيان ٢٣/ ١٩٦ .
(٦) الصافات ١٧٩ .
(٧) التبيان ٢٣/ ٥٣٨، مجمع البيان ٢٣/ ٤٦٢ .
(٨) الكشاف ٤/ ٦٨، التفسير الكبير ٢٦/ ١٧٢، البحر المحيط ٧/ ٣٨٠ .
(٩) التحرير والتنوير ٢٣/ ١٩٦ .

ونحو استعمال الفعل الماضي المقرون بتاء الفاعل الذي بصيغة (فَعُلَ)، وهو: (بَصُرَ)، الدال على قوة الإبصار المؤدية إلى الرؤية، وذلك حين تتبعت أخت موسى عليه السلام أثر اخيها عند إلقائه في اليم بتابوت، بإلهام من الله -تعالى- وتوجيه من والدتها، فرأت آل فرعون وقد أخرجوه من ذلك التابوت، فقال تعالى: [**وَقَالَتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ**][1]. وفسر أبو عبيدة (بَصُرَت) في الآية بمعنى: (أبْصَرَتْ)[2]، وقال غيره معناه: (رَأَتْ)[3]. وليس هناك تفاوت بين المعنيين .

فيلحظ أن هذه اللفظة افادت قوة الإبصار، وهي قوة استعمال حاسة البصر، في التحديق بالمُبْصَر، فيكون (بَصُرَ) على هذا أقوى منه (أبْصَرَ)[4]. وعلى هذا فإن لفظة (أبْصَرَ) أقوى من (بَصَر) وأن (بَصُرَ) أقوى من (أبْصَرَ) .

ويلحظ أيضاً في هذه الآية أن القرآن عبر باللفظ القليل عما هو كثير من المعنى. إذ نجد هنا ((إيجاز قصر))، وهو الذي يراد به: ((تقليل الألفاظ، وتكثير المعاني))[5]، أو هو: ((ما تزيد فيه المعاني على الألفاظ الدالة عليه بلا حذف))[6] .

وتقدير الكلام: ((فذهبت أخت موسى فوجدت آل فرعون قد أخرجوا التابوت، وأخرجوا موسى فَبَصُرَتْ به))[7] . فأوجز هذا المعنى بعبارة: [**فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُب**]. وفي التعبير إيحاء بأن ذلك حصل منها في خفاء؛ لئلا يشعروا بها فيعرفوا أهل بيته .

(١) القصص ١١ .
(٢) مجاز القرآن ٢/ ٩٨ . الطبعة الأولى ١٣٨١ هـ - ١٩٦٢ م .
(٣) معاني القرآن: الفراء ٢/ ٣٠٣، مجمع البيان ٢٠/ ٢٤٣، تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب أبو حيان ٤٧ .
(٤) التحرير والتنوير ٢٠/ ٨٣ .
(٥) الصناعتين ص ١٧٥ .
(٦) علم البلاغة: المراغي ص ١٨٨ .
(٧) مجمع البيان ٢٠/ ٢٤٢ .

وكما استعمل الفعل بمعناه الحقيقي، استعمل كذلك بمعناه المجازي، فدل بذلك على معنى التبيين والعلم[1]، وذلك في بيان عودة المنفعة وعدمها فيمن اتضحت له الدلائل والآيات على قدرة الله -سبحانه وتعالى- وتوحيده . فيكون موقفه إما الاهتداء، وإما الضلالة، فإن اهتدى كانت منفعة ذلك تعود عليه، وإن ضل فقد أساء إلى نفسه، وفي كلا الحالين يكون خيره أو شره على نفسه، ويدلنا على ذلك قوله تعالى: [**قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ**][2]. وذكر الطبرسي (ت ٥٣٨ هـ) أن المراد: ((من تبين هذه الحجج بأن نظر فيها، حتى أوجبت له العلم فمنفعة ذلك تعود إليه ولنفسه))[3] .

أما (حاسة البصر) فلا تقل أهميتها عن حاسة السمع؛ إذ هي وسيلة للمعرفة أيضاً، ما تعلق منها بالدين أو بالدنيا. وقد جعل الله -سبحانه وتعالى- لها آلة تقوم بوظائفها وهي (العين)، ذلك المصباح المنير الذي جعله الله في أعلى الوجه، ليصل به الإنسان عن طريق النظر والتأمل إلى حقائق الدين، وأمور الدنيا.

وإذا تأملنا في أحوال العين، تبين لنا: أن الله- سبحانه وتعالى- جعل موضع الإبصار في العين مقدار عدسة واحدة، فأظهر في تلك العدسة صور السماء والعالم مع اتساع أطرافها وتباعد أكنافها. وجعل البياض فيها مناسباً للنور والسواد مناسباً للظلمة. كما أنه -سبحانه- جعل الحدقة مصونة بالأجفان لتسترها وتحفظها، وتصقلها، وتدفع الأقذار عنها[4]، وفضلاً عن ذلك (جعلها سوداء إذ لو كانت بيضاء لتفرق النور الباصر، فضعف الإدراك، فإن السواد يجمع البصر، ويمنع من تفرق النور الباصر. وخلق سبحانه

(١) جامع البيان ٧/ ٢٠٤، مجمع البيان ٧/ ٣٤٥، التفسير الكبير ١٣/ ١٣٤ .
(٢) الأنعام ١٠٤ .
(٣) مجمع البيان ٧/ ٣٤٥ .
(٤) أسرار التنزيل وأنوار التأويل: فخر الدين الرازي ص٥١١.

لتحريك الحدقة وتقليبها أربعاً وعشرين عضلة، لو نقصت عضلة واحدة لاختل أمر العين))[1] .

وفضلاً عن ذلك، جعل سبحانه العين كالمرآة التي ينتفع بها، إذا كانت في غاية الصقالة، والصفاء. فالعين من أرقّ أعضاء البدن. ثم إن جميع الأعضاء تتأثر بالحر والبرد إلا العين، فهي لا تؤثر فيها تلك الأحداث. وكان ينبغي في الظاهر أن يكون الأمر بخلاف ذلك؛ لأن الأرقّ أسرع تأثيراً بما حوله، وما ذاك إلا ليُعلم أن حصول المصالح ليس بالطبع والخاصية، بل بحفظ العليم الرحيم[2] .

ورب سائل يقول: ما الحكمة في أن يجعل الله العينين في وسط الوجه؟ والجواب: ((لأنَّ العينين محل الملاحة والزينة والجمال، وهما بمنزلة النور الذي يمشي بين يدي الإنسان))[3] . وفضلاً عن ذلك فإن الله -سبحانه وتعالى- خلق الإنسان فأحسن خلقه، ونبه عليه بقوله: { **وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ** }[4] . فجعل كل عضو من أعضائه في موضعه الذي لا يغنى عنه موضع آخر، فكان وضع العين في هذا الموضع أليق به من سائر المواضع.

ومن حكمته -سبحانه- إنه خلق العينين بغطاء، والأُذنين بغير غطاء، وهذا كما يذكر ابن قيم الجوزية في غاية الحكمة، وعلة ذلك عنده إنه (لو كان للأذنين غطاء لمنع الغطاء إدراك الصوت، فلا يحصل إلا بعد ارتفاع الغطاء. والصوت عَرَض لإثبات له، فكان يزول قبل كشف الغطاء))[5] . وهو من رائع التعليل.

(١) التبيان في أقسام القرآن ص١٩١.
(٢) أسرار التنزيل وأنوار التأويل ص٥١١.
(٣) التبيان في أقسام القرآن ص١٩٢.
(٤) التغابن ٣.
(٥) التبيان في أقسام القرآن ص١٩٢.

المبحث الرابع
الإعجاز في ذوق الإنسان

أصل (الذوق) في اللغة: اختيار الشيء من جهة الطعم[١]. وهو مصدر ذاق الشيء يَذُوقه ذَوْقاً وذوافاً ومَذافاً[٢]، ثم يشتق منه مجازاً[٣]. فيقال ((ذُقْتُ فلاناً، وذَقْتُ ما عنده))[٤]، أي: اختبرتهُ، وكل ما نزل بالإنسان من مكروه فقد ذاقه[٥].

وعرَّف الراغب[٦] (ت ٤٢٠ هـ) الذوق بأنه: ((وجود الطعم بالفم)) وفرق بينه وبين الأكل بقوله: (وأصله فيما يقل تناول دون ما يكثر، فأن ما يكثر منه يقال له الأكل)). وعلى هذا فإن الذوق أخذُ شيء قليل مما يؤكل أو يشرب، فهو دون الشبع من الطعام، والارتواء من الشراب. وهو المتعارف عليه في استعمال الناس اليوم في حياتهم اليومية.

وفي القرآن الكريم ورد الفعل المعبرّ عن الذوق في ثمانية وخمسين موضعاً[٧]، بدلالتين، حسّية (حقيقية)، ومعنوية (مجازية).

فقد عبرّ القرآن الكريم بالفعل الماضي (ذاق) عن الدلالة الحسّية للفعل، وهي دلالة الأكل القليل، حقيقة لا مجازاً، وذلك في قصة آدم – عليه السلام– عندما نهُي عن الأكل من الشجرة المحرمة، ولكن وقع في إغواء الشيطان –لعنه الله– إذ وسوس إليه فأكل منها، قال تعالى: [**فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ**][٨] والمراد: ((ابتدآ بالأكل، ونالا منها شيئاً يسيراً))[٩].

---

(١) مقاييس اللغة ٢/ ٣٦٤ (ذوق)
(٢) اللسان ١٠/ ١١٢ (ذوق)
(٣) مقاييس اللغة ٢/ ٣٦٤ (ذوق).
(٤) أساس البلاغة ١/ ٣٠٥ (ذوق)
(٥) العين ٥/ ٢٠١، مقاييس اللغة ٢/ ٣٦٤، اللسان ١٠/ ١١١ (ذوقه).
(٦) المفردات ص ٢٦٤ (ذوق).
(٧) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن ص ٣٥٤-٣٥٥ .
(٨) الأعراف ٢٢ .
(٩) مجمع البيان ٨/ ٤٠٧.

ويدلنا على أن الذوق هنا يراد به الأكل القليل، ما ورد في سياق آية أخرى، وهو قوله تعالى في سورة (طه): [**فَأَكَلا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا**][1] فهذه الآية دلت على أن الذوق الذي ذكر في آية الأعراف، يراد به أنهما أكلا منها فعلاً، ولكن قليلاً .

ولذلك ذكر الطبرسي[2] (ت ٥٤٨هـ) أنه تعالى ((أتى بلفظة (ذاقا) عبارة عن أنهما تناولا شيئاً قليلاً من ثمرة الشجرة على خوف شديد؛ لأن الذوق ابتداء الأكل والشرب ليعرف الطعم)). فلما أكلا القدر اليسير عبر عنه بفعل الذوق.

وقد استعمل القرآن (الذوق) في مشاهد يوم القيامة، معبراً عنه بالفعل المضارع (يذوق)، داخلة عليه لام الأمر وذلك في تصوير حال الكافرين في ذلك اليوم الشديد، وهم يعذبون بماء حار، وبارد زمهرير، فجمع بينهما في تعبير واحد متعاطفين؛ ليشعر بشدة ذلك العذاب الذي في هذا الذوق، فقال: [**هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاق**][3] وأطلق في هذا السياق لفظ الذوق؛ ((لأن الذائق يدرك الطعم بعد طلبة فهو أشد إحساسا به))[4].

وكما استعمل الفعل (ذاق) في القرآن بدلالته الحسّية، استعمل كذلك بدلالته المعنوية، وهي دلالة مجازية، وارداً على معانٍ عدة، وذلك في سياقين:

أحدهما: سياق الرحمة والنعمة، وهو ضرب من المجاز، كالذي في قوله تعالى: [وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُوسٌ كَفُورٌ][5]. والمراد بقوله: (أذقنا): ((أحللنا به نعمة من الصحة والكفاية والسعة من المال والولد،وغير ذلك من نعم

(١) طه ١٢١.
(٢) مجمع البيان ٨/ ٤٠٧
(٣) ص٥٧.
(٤) مجمع البيان ٢٣/ ٤٨٣ .
(٥) هود ٩ .

الدنيا))[1]. ففي هذا التعبير المجازي ضرب من التجسيم الفني لما هو معنوي وهو الرحمة حين وصفت بأنها تذاق.

وللمفسرين في أطلاق الذوق في هذه الآية ثلاث أقوال:

الأول: أن الله -سبحانه وتعالى- سمّى إحلال اللذات بالإنسان إذاقةً؛ لسرعة زوالها تشبيهاً بما يذاق، ثم ما يلبث أن يزول[2] .

والثاني: أن لفظ الإذاقة يفيد أقل ما يوجد به الطعم،فكأن المراد: إن الإنسان بحصوله على أقل القليل من الخيرات العاجلة في الدنيا، يقع في التمرد والطغيان، وبإدراك أقل القليل من المحنة والبلية، يقع في اليأس والقنوط والكفران. فمتاع الدنيا قليل، والحاصل منه للإنسان الواحد قليل، والإذاقة من ذلك المقدار خير قليل[3] .

والثالث: ذكره ابن عاشور، وهو أن مادة الإذاقة هنا اختيرت لما تشعر به من الإدراك لأمر محبوب؛ لأن المرء لا يذوق إلاّ ما يشتهيه[4] .

فمن هذه الأقوال يتضح أن استعمال (الذوق) في الرحمة، يدل على أن هذه الرحمة التي تصيب الإنسان في الدنيا قليلة قياساً، لما هي عليه في اليوم الآخر.

أما السياق الثاني: الذي يرد فيه استعمال الذوق، فهو سياق العذاب، وهو كثير الورد في القرآن الكريم، قال الراغب[5]: ((اختير في القرآن لفظ الذوق في العذاب؛ لأن ذلك، وإن كان في التعارف للقليل، فهو مستصلح للكثير، فخصه بالذكر ليعم الأمرين)). أو بعبارة أُخرى: أَن القرآن استعمل الذوق في العذاب ليبين للكفار، أن ما هم عليه

(١) مجمع البيان ١٢/ ١٤٥.
(٢) مجمع البيان ١٢/ ١٤٥
(٣) التفسير الكبير ١٧/ ١٩١.
(٤) التحرير والتنوير ١٢/ ١٢.
(٥) المفردات ص٢٦٤.

من العذاب في الدنيا أقل من عذاب الآخرة؛ لأن الذوق إنما يستعمل في القدر القليل. وهذا ما تبينه من قوله تعالى: [وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُون][1].

فيلحظ في هذه الآية أن الذوق استعير للعذاب، وهذه الاستعارة أبلغ، وأسرع تأثير في النفوس، ولذلك قال الرماني[2] (ت ٣٨٤هـ): ((حقيقته لنعذبنهم، والاستعارة أبلغ؛ لأن إحساس الذائق أقوى، لأنه طالب لإدراك ما يذوقه، ولأنه جعل بدل إحساس الطعام المستلذ إحساس الآلام، لأن الأسبق في الذوق ذوق الطعام)).

وعلى هذا فإن الإحساس بألم العذاب وإن لم يكن من المعنويات، إلا أن التعبير عنه بذوق اللسان أوضح وأظهر، لأن الذي يريد تذوق شيء إنما يتجه إليه، وهو منتبه إليه[3]. أو بعبارة أخرى: إن الإنسان إذا تذوق شيئاً شعر بمرارته أو حلاوته فيظهر تأثير ذلك عليه.

ومن استعمال القرآن للفعل (ذاق) للدلالة على العذاب أيضاً، قوله تعالى في القرى التي كفرت بأنعم الله: [**فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ**][4]، والمراد: (عذبها الله تعالى)[5]، وهذا فيه ضرب من التجسيم الفني لما هو معنوي؛ إذ صور الجوع في الآية –وهو معنوي– شيئاً حسياً وهو اللباس، وليس اللباس مما يذاق، وهذا من أروع التصوير في القرآن.

---

(١) السجدة ٢١.
(٢) النكت في أعجاز القرآن: ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ص٩٣، وينظر: الصناعتين: أبو هلال العسكري ص٢٧٥.
(٣) الإعجاز البلاغي: محمد محمد أبو موسى ص١٢٧.
(٤) النحل ١١٢.
(٥) إصلاح الوجوه ص١٨٦.

وإذا انتقلنا إلى (حاسة الذوق)، تلك التي بها نستطيع أن نميز أنواع الطعوم: الحلو، والمر، والحامض، والمالح، فقد خلق سبحانه (ثلاثة آلاف شعيرة تتذوق الطعام لتعطيك طعم الحلو، والمر، وكل الألوان المختلفة لتذوق الطعام))[1] . فهي من الحواس ذات الصفة الكيميائية، إذ تتضمن نوعاً من التفاعل الكيميائي بالتبادل بين مادة التذوق وعدد من الظواهر الكيميائية[2] . وترتبط حاسة الذوق والشم ارتباطاً وظيفياً، إذ إن كثيراً من الأطعمة التي تعدها ذات نكهة مميزة ندركها في الواقع برائحتها لا بطعمها[3] .

ولما كان لكل من السمع والبصر آلة تؤدي وظيفتها، جعل الله للذوق آلة، وهي اللسان، ذلك العضو المرن الكثير الحركة، وقد جعله الله – سبحانه- (عضواً لحمياً، لا عظم فيه ولا عصب، لتسهيل حركته، ولهذا لا تجد في الأعضاء من لا يكترث بكثرة الحركة سواه. فإن أي عضو من الأعضاء إذا حركته كما تحرك اللسان، لم يطق ذلك، ولم يلبث أن يكل ويخلد إلى السكون، إلا اللسان ... فإنه من أعدل الأعضاء وألطفها))[4]. ولذلك وصفه ابن قيم الجوزية بأنه في الأعضاء بمنزلة رسول الملك ونائبه[5] .

وقد جعل الله – سبحانه وتعالى- لهذا العضو وظائف تفوق وظائف الحواس الأخرى؛ إذ لكل عضو من أعضاء الحس وظيفة واحدة، إلا هذا العضو. فالعين للبصر، والأُذن للسمع، والأنف للشم، والأنامل من أشد جوانب الجلد إحساسا باللمس. أما هذا العضو وهو اللسان فقد شاءت له العناية الربانية أن يكون آلة للذوق، وآلة

(١) معجزة القرآن: محمد متولي الشعراوي ص١٧٤.
(٢) علم النفس الفسيولوجي: الدكتور عزت سيد إسماعيل ص٣٣٦.
(٣) علم النفس الفسيولوجي: الدكتور أحمد عكاشة ص٧١.
(٤) التبيان في أقسام القرآن ص١٩٥.
(٥) التبيان في أقسام القرآن ص١٩٥.

للمضغ والبلع والهضم، وآلة للمس والمّس، وآلة للتكلم[1] بل وآلة لضروب من الرموز كالتعجب والسخرية بما يظهر منه حركات وإشارات.

فمن أجل أن يكون اللسان آلة للذوق، فرش سطحه وجانباه بحليمات تمتص الطعوم وتؤديها إلى الأعصاب المنتشرة في باطنها. وشاءت العناية الربانية أن يكون صنفان من هذه الحليمات للذوق خاصة دون اللمس، كي لا يختلطان فيتعطل عمل أحدهما عند فقد الآخر. فقد يفقد الحس العام عند الإنسان وتدوم له حاسة الذوق، أو يفقد الذوق ويدوم له الحس العام.

ومن اجل أن اللسان آلة للمضغ، زوده الله تعالى بعضلة قوية نشيطة لعوب، ولولا ذلك ما أمكن مضغ ولا بلع. ومن اجل أن اللسان آلة للتكلم وخروج الأصوات من الحنجرة، شاءت إرادة الله أن يخلق معه شفتين؛ لتكون وسيلة لتقطيع الهواء وإخراج الحروف. ولولا ذلك ما كان لنا كلام فصيح، ولولا الشفتان لكان الإنسان فاغراً يسيل لعابه، ويدخل الغبار إلى صدره والحشرات إلى اللهاة[2] .

وبهذا التكوين العجيب تتجلى عظمة الخالق -سبحانه- في خلق هذا العضو اللحمي ليؤدي وظائفه المنوطة به: من تذوق الطعوم، والنطق بالحروف، والبلع والهضم، فلا يمكن أن نتصور حال الإنسان كيف يكون، لو لم يكن ذلك العضو موجوداً، فكيف يكون حينئذ بمقدوره معرفة أنواع الطعوم؟، وكيف يمكنه أن ينطق الكلمات ليعبر بها عما في نفسه؟ أم كيف يؤدي وظيفة البلع وهضم الطعام الذي يأكله؟. فكان هذا العضو هو المعين على ذلك كله، بتكوين الله له بهذه الصفات الدالة على عظمته سبحانه.

(١) قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن: نديم الجسر ص٤٠٢.
(٢) قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن ص٤٠٣-٤٠٤.

المبحث الخامس
الإعجاز في شمّ الإنسان

الشم لغة: يدل على المقاربة والمداناة[1]. يقال: ((شَمِمْتُ الشيء أَشَمُّهُ))[2]، وأَشْمَمْتُ فلاناً الطِيْبَ[3].

وفي القرآن الكريم لم يذكر (الشم) صريحاً بخلاف الحواس الأخرى، إذ ذكرت الحواس الأربع: (السمع، والبصر، واللمس، والذوق)، أكثر من مرة، وذلك لأن الحواس المذكورة فيها تكليف، إذ وردت في سياق الامر والنهي وغير ذلك. أما الشم فلا تكليف فيه، وإن كان المتتبع لآيات الحواس في القرآن الكريم يجد أن هناك ما يؤول إلى الشم، وذلك في موضعين: أحدهما يتعلق بالدنيا، والآخر يتعلق بالآخرة.

فأما الأول: فيتجلى في قول يعقوب -عليه السلام- حين قدم البشير إليه بقميص يوسف -عليه السلام- الذي بينه قوله تعالى: [وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلا أَنْ تُفَنِّدُونِ][4]. فشمّ يعقوب لرائحة يوسف يعدّ من المعجزات التي أنعم بها الله -سبحانه وتعالى- عليه. غير أنه لم يعبّر عنه بلفظ الشمّ، بل عبر عنه بالوجود، حين قال: **[لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ]**، أي: أشمّه. وأيضاً فإن المراد بالريح هنا: ((الرائحة، وهي ما يعبق من طيب تدركه حاسة الشم))[5]. وهو لفظ مشترك له أكثر من معنى، أحدها (الريح).

وأما الموضع الثاني: فهو في اليوم الآخر في وصف الجنة التي أعدها الله للمتقين، إذ عبر

---

(١) مقاييس اللغة ٣/ ١٧٥ (شمّ).
(٢) العين ٦/ ٢٢٣ (شمّ).
(٣) مقاييس اللغة ٣/ ١٧٥ (شمّ).
(٤) يوسف/ ٩٤.
(٥) التحرير والتنوير ١٣/ ٥٢.

عنه بـ(العَرْف) بصيغة الفعل الماضي (عَرَّفَها)، وذلك في قوله تعالى: [وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ][1]. وقد أول (عَرّف) بتأويلين[2]:

أحدهما: أن يكون من (العَرف)، وهو الرائحة الطيبة الزكية، والمراد: طيبها لهم. يقال: طَعمٌ معرَّف أي مطيَّبٌ.

والآخر: أن يكون من (التعريف) وهو التبيين بالوصف، والمراد: عرّفهم منازلهم فيها، وبينها لهم.

والذي يبدوا -والله أعلم- أن التأويل الثاني هو الراجح؛ بدليل ما ورد من آيات يصف بها الله -سبحانه وتعالى- الجنة التي أعدها للذين آمنوا به وبرسله واليوم الآخر، ومنها قوله تعالى: [إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً * حَدَائِقَ وَأَعْنَاباً * وَكَوَاعِبَ أَتْرَاباً * وَكَأْساً دِهَاقاً * لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلا كِذَّاباً * جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَاباً][3]، وقوله تعالى: [إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ][4]، وغير ذلك كثير.

وعلى هذا يكون (الشم) قد ورد في موضع واحد في القرآن، وهو سورة يوسف، وبغير لفظه الدال عليه، بل ورد بلفظ آخر هو (أَجِدُ) أي: أشم، كما تقدم بيانه.

وفي ضوء ما تقدم، ننتهي بالحديث عن عظمة الخالق في خلق الحواس وقدرته على منحها الصفات، بالحديث عن حاسة الشم، تلك الحاسة التي تعد أقل الحواس أهمية حتى أنها لم ترد في القرآن الكريم إلا في موضعين، ولم ترد مصرحاً بها، بل ورد ما يشير إليها أو يؤول إليها، في ذنِيكَ الموضعين: الأول في سورة يوسف، وهو قوله تعالى: { وَلَمَّا

(١) محمد/ ٦.
(٢) تفسير غريب القرآن: السجستاني ص١٤٢، مجمع البيان ٢٦/ ٩٨.
(٣) النبأ/ ٣١-٣٥.
(٤) البروج ١١.

فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلا أَنْ تُفَنِّدُونِ }[1]. والآخر في سورة (محمد) وهو قوله تعالى: { **وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ** }[2] .

لقد جعل الله -سبحانه وتعالى- لكل حاسة آلة، فجعل آلة الشم الأنف، إذ (رفعه سبحانه في وسط الوجنة بأحسن شكل، وفتح فيه بابين، وأودع فيهما حاسة الشم، وجعله آلة لاستنشاق الهواء وإدراك الروائح على اختلافها، فيستنشق بها الهواء البارد والطيب، فيستغنى بالمنخرين عن فتح الفم أبداً، ولولاهما لاحتاج إلى فتح فيه دائماً، وجعل سبحانه تجويفه واسعاً لينحصر فيه الهواء وينكسر برده قبل الوصول إلى الدماغ. فإن الهواء المستنشق ينقسم قسمين: شطراً منه- وهو أكثره- ينفذ إلى الرئة، وشطراً ينفذ إلى الدماغ. ولذلك يضر المزكوم استنشاق الهواء البارد))[3] .

ومما يزيد من الشعور بإعجاز الخلق والتكوين في آلات الحواس، وقدرة الباري الخارقة في خلقها وتكوينها، إنه سبحانه لم يخلق شيئاً على هيئةٍ معينة إلا لمنفعة فقد ((جعل بين المنخرين حاجزاً. وذلك أبلغ في حصول المنفعة المقصودة، حتى كأنهما أنفان بمنزلة العينين، والأُذنين، واليدين، والرجلين. وقد يصيب أحد المنخرين آفة فيبقى الآخر سالماً. وجعل تجويفه نازلاً إلى أسفل، ليكون مصباً للفضلات النازلة من الدماغ. وستره بساتر أبدي؛ لئلا تبدو تلك الفضلات في عين الرائي))[4] . ويلحظ أيضاً إنه -سبحانه- (لم يجعل في داخله الاعوجاجات ما جعل في الأُذن؛ لئلا يمسك الرائحة فيضعفها ويقطع مجراها))[5].

(١) يوسف ٩٤.
(٢) محمد ٦.
(٣) التبيان في أقسام القرآن ٢٦٠.
(٤) التبيان في أقسام القرآن ص٢٦٠-٢٦١.
(٥) مفتاح دار السعادة: ابن قيم الجوزية ١/ ١٩٠.

وللأنف وظيفة أُخرى غير استنشاقه الهواء، وهي إعانة الإنسان على النطق السليم؛ إذ (إنه يعينه على تقطيع الحروف، وتسهيل إخراجها. فلذلك من قبض أنفه عسر عليه التكلم بأكثر الحروف))[1]، ولاسيما الصوتان الغناوان: النون والميم؛ إذ تسمع لغُنة عندئذ خُنَّة تغير الصوت، بحيث يبدو وكأنه عيب من عيوب النطق عند ذلك الشخص.

وبعد هذا البيان الموجز لهذا الإعجاز في الخلق والتكوين والتركيب، هل استطاع العلم أن يأتي بما يقاربه، فضلاً عن مثله؟ إن الجواب في هذا يقال: كلا هيهات أن يستطيع ذلك { **حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ** }[2] وما هو بوالج.

(١) أسرار التنزيل وأنوار التأويل ص٥١٤.
(٢) الأعراف ٤٠.

الخاتمة

وإذ كان لكل بحث من خاتمة تلخّص أهم النتائج التي انتهى إليها، فإن أهم تلك النتائج التي تتعلق بهذا البحث هي:

١. إن الحواس من النعم التي أنعم الله بها على الإنسان، وميزه بها عن الحيوان، فجعلها-سبحانه وتعالى-وسائل يتمكن بها الإنسان من معرفة خالقه، فيستدل بها على وجوده، وقدرته، وعظمته، ويستمتع بها في حياته، وما يتعلق بآخرته. لذا فإن القرآن كثيراً ما يستعمل تلك الحواس لتحقيق هذه الغاية. فهي بهذا وسائل للمعرفة.

٢. ذكر القرآن الكريم الحواس جميعها، وهي (السمع، والبصر، والذوق، والشم) على تفاوت في القدر الذي استعمله من كل واحدة منها، فقد دار أكثر ما فيه على الحواس الأربع، إذ عليها مدار التكليف، فليس الشم نظيراً لها في الأهمية؛ وإن كان نافعاً، بدليل قلة وروده في القرآن الكريم، وذلك في سياق دنيوي، وفي سياق أخروي احتمالاً لا قطعاً.

٣. تبّين أن القرآن الكريم استعمل أفعال الحواس بصور وسياقات مختلفة، وذلك لتحقيق مقاصده الكبرى في تأكيد قدرته -سبحانه وتعالى- وربوبيته، فأقسم -سبحانه وتعالى- بما يدركه الإنسان بحاسة بصره، وما لا يدركه. فقال: [**فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لَا تُبْصِرُونَ**]. فهذا أعم قسم ورد في القرآن الكريم؛ إذ شمل ما يُرى، وما لا يُرى.

٤. استعمل القرآن الكريم أسلوب التوكيد بصوره المختلفة مع أفعال الحواس؛ وذلك لأغراض متعددة، لفظية يراد بها تأكيد حالة معينة أو معنوية، وهي رفع المجاز عن فعل الحواس الوارد في التعبير.

٥. إن القرآن الكريم استعمل أفعال الحواس بدلالات مختلفة منها دلالات حسّية (حقيقية)، وأخرى معنوية (مجازية). فقد استعمل مثلاً الفعل (سمع) بدلالته الحسّية،

وهي إدراك الصوت بالأذن، واستعمله بدلالته المعنوية المجازية، كالدلالته على القبول والطاعة، أو على معنى العلم، أو على التدبر والإنصاف، أو على الإصغاء.

٦. تبين من استقراء سياقات أفعال الحواس، أن القرآن كثيراً ما يقرن السمع بالبصر، ويقدم في أكثر المواضع السمع عليه. ويرجع ذلك لدى جمهور أهل العلم إلى أفضلية السمع على البصر، وإن كان هناك من فضل للبصر على السمع.

٧. كان القرآن الكريم دقيقاً في استعماله لأفعال الحواس، إذ هو يستعمل الفعل في الموضع الذي يلائم السياق الذي ورد فيه، كاستعماله الفعل (آنس) للدلالة على رؤية النار في برية ليس فيها سوى الظلمة والوحوش، لما لرؤيتها في مثل هذا الموقع من إيناس الناظر إليها، ورفع الوحشة عن نفسه.

٨. استعمل القرآن الكريم أفعال الحواس في تصوير مظاهر الحياة الدنيا، وفي تصوير مظاهر يوم القيامة؛ لأن هذه المظاهر تدرك بتلك الحواس.

وبعد،

فهذه أهم النتائج التي في هذا البحث أختمها بحمد الله، والصلاة على سيدنا ونبينا محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين وأصحابه الغر الميامين، والحمد لله ربّ العالمين.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١) أسرار التنزيل وأنوار التأويل: فخر الدين الرازي (ت ٦٠٦ هـ). تحقيق: محمود أحمد، بابا علي الشيخ عمر، صالح محمود عبد الفتاح. دار واسط للطباعة والنشر-بغداد . (د. ط).

٢) إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم: الحسن بن محمد الدامغاني (ت ٤٧٨هـ). حققه ورتبه وأكمله وأصلحه: عبد العزيز سيد الأهل. الطبعة الأولى. دار العلم للملايين -بيروت- ١٩٧٠م.

٣) أصول علم النفس العام: الدكتور أحمد عزت راجح. دار القلم -بيروت- لبنان.

٤) الإعجاز البلاغي (دراسة تحليلية لتراث أهل العلم): الدكتور محمد محمد أبو موسى. الطبعة الأولى. مكتبة وهبة - القاهرة ١٩٨٤م

٥) إعجاز القرآن في حواس الإنسان في ضوء الطب وعلوم القرآن والحديث: الدكتور محمد كمال عبد العزيز. مكتبة القرآن -القاهرة- (د.ت).

٦) إعجاز الْقُرْآن والبلاغة النبوية، لمصطفى صادق الرافعي . ضبطه وصححه وحقق أُصُوله: مُحَمَّد سعيد العريان . الطَبْعَة الرابعة . مطبقة الاستقامة . ١٣٥٩ هـ ـ ١٩٤٠م .

٧) البحر المحيط: أبو عبد الله محمد بن يوسف الأندلسي الشهير بأبي حيان (ت ٧٤٥هـ). الطبعة الأولى. مكتبة ومطابع النصر الحديث - الرياض (د.ت).

٨) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي (ت ٨١٧هـ). تحقيق: محمد علي النجار. الكتاب الرابع. دار التحرير

للطباعة والنشر. مطابع شركة الإعلانات الشرقية - القاهرة ١٣٨٥هـ.

٩) تأويل مشكل القرآن: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة (٢١٣-٢٧٦هـ). شرحه ونشره: السيد أحمد صقر. الطبعة الثانية. دار التراث - القاهرة ١٣٩٣هـ-١٩٧٣م.

١٠) التبيان في أقسام القرآن: شمس الدين محمد بن أبي بكر المعروف بـ(ابن قيم الجوزية) (ت ٧٥١هـ). صححه وعلق عليه: الشيخ طه يوسف شاهين. دار الكاتب العربي - القاهرة (د.ت).

١١) التحرير والتنوير: محمد الفاضل بن محمد الطاهر بن العاشور (ت ١٣٩٠هـ). دار التونسية للنشر - تونس ١٩٨٤م.

١٢) تحفة الأديب بما في القرآن من الغريب: أثير الدين أبو حيان الأندلسي (ت ٧٤٥هـ). تحقيق: الدكتور أحمد مطلوب، الدكتورة خديجة الحديثي. الطبعة الأولى. مطبعة العاني - بغداد ١٣٩٧هـ-١٩٧٧م.

١٣) التَّعْرِيفات . لأبي الْحَسَن علي بن مُحَمَّد بن علي الجرجاني المعروف بالسيد الشريف . ت ٨١٦هـ. تَحْقِيق: إبْرَاهِيم الأبياري . الطَبْعَة الأُولَى . دَار الكِتَاب العَرَبِيّ . بَيْرُوْت . ١٤٠٥هـ

١٤) التفسير الكبير: الفخر الرازي (ت ٦٠٦هـ). الطبعة الأولى. المطبعة البهية المصرية - مصر ١٣٥٧هـ-١٩٣٨م.

١٥) تفسير غريب القرآن: أبو بكر محمد بن عزيز السجستاني (ت ٣٣٠هـ). دار التراث العربي - القاهرة (د.ت).

١٦) التوقيف عَلَى مهمات التعاريف . لمُحَمَّد عَبْد الرؤوف المناوي . ت ١٠٣١هـ. تَحْقِيق: د . مُحَمَّد رضوان الداية . الطَبْعَة الأُولَى . دَار الفكر المعاصر ـ دمشق، ودَار الفكر

للطباعة والنشر . ـ بَيْرُوْت . ١٤١٠هـ.

١٧) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن/ للرماني-والخطابي-وعبد القاهر الجرجاني/ في الدراسات القرآنية والنقد الأدبي. تحقيق: الدكتور محمد خلف الله-الدكتور محمد زغلول سلام. الطبعة الثانية. دار المعارف - مصر ١٣٨٧هـ-١٩٦٨م.

١٨) السلوك الاجتماعي بين علم النفس والدين: فوزي سالم عفيفي. وكالة المطبوعات. دار غريب للطباعة - القاهرة (د.ت).

١٩) شرح الفصيح: ابن هشام اللخمي (ت ٥٧٧هـ). دراسة وتحقيق: الدكتور مهدي عبيد جاسم. الطبعة الأولى. وزارة الثقافة والإعلام. دائرة الآثار والتراث. سلسلة خزانة دار صدام للمخطوطات - بغداد ١٤٠٩هـ-١٩٨٨م.

٢٠) شَرْح جلال الدِّين الدَّوَانِي عَلَى العقائد العضدية . الطَبْعَة الأُولَى . دَار الطباعة العامرة . ١٣١٧هـ.

٢١) الصحاح: تاج اللغة وصحاح العربية: إسماعيل بن حماد الجوهري (ت ٤٠٠هـ). تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار. الطبعة الرابعة. دار العلم للملايين - بيروت ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.

٢٢) الصناعتين: أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري (ت بعد ٤٠٦هـ). تحقيق: علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم. الطبعة الأولى. دار إحياء الكتب العربية - القاهرة ١٣١٧هـ-١٩٥٢م.

٢٣) علم البلاغة: (البيان-والمعاني-والبديع): أحمد مصطفى المراغي (ت ١٣٧١هـ). الطبعة الثانية. دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.

٢٤) علم النفس الفسيولوجي: الدكتور أحمد عكاشة. الطبعة الرابعة. دار المعارف - مصر ١٩٧٧م.

٢٥) علم النفس الفسيولوجي: الدكتور عزّت سيّد إسماعيل. الطبعة الأولى. الناشر: وكالة المطبوعات عبد الله قرمي - الكويت. توزيع: دار القلم - بيروت ١٩٨٢م.

٢٦) العين: أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي (١٠٠-١٧٥هـ). تحقيق: الدكتور مهدي المخزومي، والدكتور إبراهيم السامرائي. دار الرشيد للنشر - بغداد ١٩٨٢م. طباعة شركة المطابع النموذجية عمان-الأردن.

٢٧) الفروق اللغوية: أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري (ت بعد ٤٠٦هـ). ضبطه وحققه: حسام الدين القديس. دار الكتب العلمية - بيروت ١٤٠١هـ-١٩٨١م.

٢٨) قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن: نديم الجسر. الطبعة الأولى - طرابلس - ليبيا ١٣٨٠هـ-١٩٦١م.

٢٩) كشاف اصطلاحات الفنون: محمد علي الفاروقي التهانوي (ت في القرن الثاني عشر الهجري). تحقيق: الدكتور لطفي عبد البديع. ترجم النصوص الفارسية: الدكتور عبد النعيم محمد حنين. راجعه: الأستاذ أمين الخولي. الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر. دار الكاتب العربي - القاهرة ١٩٧٢م.

٣٠) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: جار الله محمود بن عمر الزمخشري (ت ٥٣٨هـ). دار الكتاب العربي - بيروت (د.ت).

٣١) الكليات (معجم في المصطلحات والفروق اللغوية): أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي (ت ١٠٩٤هـ-١٦٨٣م). أعده للطبع ووضع فهارسه: الدكتور عدنان درويش - محمد المصري. منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي. دار الكتب الثقافية - دمشق ١٩٧٥م.

٣٢) لسان العرب: أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري

(ت ٧١١هـ). دار صادر – بيروت (د.ت).

٣٣) مجمع الْبَحْرين . لفخر الدِّين الطريحي . ت ١٠٨٥هـ. تَحْقِيق: أَحْمَد الحسيني . الطَبْعَة الثانية . مكتب نشر الثقافة الإِسْلامِيّة . ١٤٠٨هـ

٣٤) مجمع البيان في تفسير القرآن: أبو علي الفضل بن حسن الطبرسي (ت ٥٤٨هـ). وقف على تصحيحه والتعليق عليه: السيد باسم الرسولي المحلاتي. دار إحياء التراث – بيروت ١٣٧٩ق-١٣٣٩ش.

٣٥) مدخل إلى علم النفس العام: الدكتور أحمد فائق، والدكتور محمود عبد القادر. المطبعة الفنية الحديثة – القاهرة.

٣٦) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي: الفيومي: أحمد بن محمد بن علي المقري (ت بعد ٧٧٠هـ). الطبعة الثامنة. المطبعة الأميرية بولاق – مصر ١٩٣٩م.

٣٧) معاني القرآن وإعرابه: أبو إسحاق إبراهيم بن السّري الزجاج (ت ٣١١هـ). تحقيق: الدكتور عبد الجليل عبده شلبي. الطبعة الأولى. عالم الكتب – بيروت ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

٣٨) معاني القرآن: أبو زكريا بن زياد الفراء (ت ٢٠٧هـ). تحقيق (ج١): أحمد يوسف نجاتي ومحمد علي النجار. مطبعة دار الكتب المصرية ١٣٧٤هـ-١٩٥٥م. (ج٢) تحقيق ومراجعة: محمد علي النجار. الدار المصرية للتأليف والترجمة. مطابع سجل العرب – القاهرة ١٩٦٦م. (ج٣) تحقيق: الدكتور عبد الفتاح إسماعيل شلبي. مراجعة: علي النجدي ناصف. الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٢م.

٣٩) معجزة القرآن: الشيخ محمد متولي الشعراوي. الدار العربية – بغداد.

٤٠) معجم الجملة القرآنية: الدكتور طالب محمد إسماعيل الزوبعي. مديرية دار

الكتب للطباعة والنشر - الموصل ١٩٨٨م.

٤١) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: محمد فؤاد عبد الباقي. الطبعة الثانية. دار الحديث - القاهرة ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

٤٢) معجم مقاييس اللغة: أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (ت ٣٩٥هـ). تحقيق وضبط: عبد السلام محمد هارون. دار الفكر - بيروت ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.

٤٣) الْمُغْنِي فِي أَبْوَاب العدل والتوحيد. للقاضي أَبِي الْحَسَن عَبْد الجبار الأسدآبادي المعتزلي، ت ٤١٥ هـ)، حرر نصه: أمين الخولي، أشرف عَلَى إحيائه: طه حسين، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للكتاب، الطَبْعَة الأُولَى، القاهرة .

٤٤) المفردات في غريب القرآن: الحسين بن محمد المعرف بـ(الراغب الأصبهاني) (ت ٤٢٠هـ). الناشر: مكتبة الانجلو المصرية. المطبعة الفنية الحديثة ١٩٧٠م.

٤٥) نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي (ت ٥٩٧هـ). دراسة وتحقيق: محمد عبد الكريم كاظم الراضي. الطبعة الأولى. مؤسسة الرسالة - بيروت ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.